

لماذا الثورة السورية مختلفة؟

صائب خليل*

الشروط ثانية ليضمن استمرار الأزمة. وقد استعملتها الولايات المتحدة مع صدام حسين عند احتلاله الكويت حين كان خروجه السلمي يُعدّ «سيناريو الكارثة» حسب تعبير كولن باول، وكذلك ما كشف عن الشروط التي وضعها الناتو لميلوسوفيتش في موضوع كوسوفو. ولم يقف الأمر عند هذا، بل صاحبه نشاط دولي كبير لتهديب الأسلحة والمقاتلين من دول جوار سوريا، من لبنان والأردن، التي اضطرت أحياناً إلى الاعتراف بها، وربما العراق، إضافة إلى ليبيا.

وعلى العكس من ثوار مصر وتونس الذين كانوا يعلنون رفضهم لإسرائيل أولوية رغم حراجه موقفهم، فإن ما قاله قادة «الثورة» السورية التي طالما انتقدت الحكومة السورية بأنها «لم تفعل شيئاً من أجل تحرير الجولان»، يدعو إلى القلق. رئيس «مجلس إسطنبول» برهان غليون بين لصحيفة «وول ستريت جورنال» أن ما يقلق الثوار السوريين هو علاقة بلادهم مع حزب الله وإيران، ويعدون بعلاقة أقل معهما، ودعا إلى فرض منطقة حظر طيران على سوريا، وأنه سيسعى إلى استعادة الجولان «بالتفاوض». بينما يدعو المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين محمد رياض الشقفة إلى تدخل عسكري في سوريا، وطالب عبد الحليم خدام في حديث لقناة الحرة الأميركية بتدخل عسكري لحلف الناتو.

موقف العراق

إعلامياً، تبنى العراق موقف المعارضة لإزالة النظام بالقوة، ودعا إلى التفاهم مع الحكومة السورية، وعارض الرئيس جلال الطالباي التدخل الأجنبي العسكري فيها. وكذلك أكد رئيس الحكومة ثوري المالكي موقفاً مشابهاً، مدعوماً من معظم السياسيين في البلد. وترى الحكومة العراقية أن الأمر شأن داخلي في سوريا لا يحق لجماعة الدول العربية التدخل فيه.

لكن من الناحية العملية، اكتفى العراق بالامتناع عن التصويت، وذلك لا يمنع «تدخل الجامعة» في «الشؤون الداخلية» لسوريا. ومن ناحية أخرى، خرجت الجامعة عن بروتوكولها وصوّتت رغم اعتراض دولتين، بإصدار القرار، وهو ما يذكرنا بمرّة سابقة كانت الجامعة فيها «أكثر فاعلية» مما يسمح به بروتوكولها، حين صوتت على حرب تحرير الكويت، فبدأ للمراقب أن الجامعة لا تنشط إلا تنفيذاً لأجندة أميركية؛ الامتناع عن التصويت منح المالكي صورة الرافض، ومنح الأميركيين ما يريدون عملياً. ويؤكد هذا الموقف إعلان المالكي بعد زيارة باين الأخيرة أنه مستعد «لاستقبال المعارضة السورية... لتحقيق مطالب الشعب بعيداً عن العنف والحرب الأهلية»، وهو ما قد يُعدّ دعماً سياسياً وإعلامياً للمعارضة.

وعلياً ألا نستعين بالضغط الذي يتعرض له المالكي من الولايات المتحدة التي تلقي بكل ثقلها في المعركة، ولا تزال تعسكر في بلاده وتسيطر على الكثير من مراقبها بالسور والعلن. وكان الإعلام العربي القريب من إسرائيل قد قام بعملية «الضغط الاستباقي» لمنع العراق من التفكير بمساعدة سوريا أو التعاون معها، من خلال بث شائعات مفادها أن الحكومة العراقية دعمت الحكومة السورية بالمال (بينما الحقيقة أنها لا تدعم سوى حكومة الأردن المقربة من إسرائيل، بالنظر إلى الخفض). وبالطريقة نفسها، أشيع أن مقاتلين من جيش المهدي أرسلوا إلى سوريا للقتال إلى جانب الأسد، لكن أشار أنيس نقاش لاحقاً إلى أن القوات الأميركية أطلقت 400 عنصر من «القاعدة» للقتال إلى جانب المعارضة السورية، وهي الرواية الأقرب إلى التصديق باعتبار أن حماسة الولايات المتحدة لدعم المعارضة السورية وقدرتها على تفعيلها، تفوقان كثيراً ما يقابله لدى الصوريين. وتنتشر في العراق دعوات «جهادية» على الإنترنت، وفي تقديري أنها من صنع الموساد.

فضلاً عن خطر الحرب الأهلية في سوريا، تواجه المنطقة احتمالات اشتعال حرب كبرى بسبب تلك القضية، ودفعت روسيا بوحدات بحرية إلى السواحل السورية، ربما لردع التفكير بضرب الغرب لسوريا، في الوقت الذي توجد فيه قوات بحرية أميركية أكبر في المنطقة، وكذلك تستعد السعودية لشراء صواريخ حماية. ورغم أن الصين وروسيا الراضيتين للعقوبات والتدخل الخارجي في سوريا، قد تمنعان قراراً من مجلس الأمن، إلا أن الولايات المتحدة لم تجد ذلك عائقاً بينها وبين إشعال الحرب في الماضي.

التهديد السياسية مع جيرانه الآخرين، ولم يبد قلقاً من إزالة الحكومة العربية الوحيدة التي بقيت أمام إسرائيل التي يدعي الوقوف بوجهها. ويعزو د. هاشم الموسوي وآخرون، الموقف التركي إلى رغبة تاريخية عثمانية في احتلال سوريا أو مناطق منها، إضافة إلى محاولة للتقرب من إسرائيل لأسباب عدة، منها تحييدها في المواجهة مع اليونان وقبرص. وتبنى أردوغان موضوع «الممرات الإنسانية» التي سارع المعارضون للتدخل، ومنهم العراق، إلى رفضها، وأكدت الأمم المتحدة عدم الحاجة إليها، وهو ما يكشف أن الهدف منها كان إمرار السلاح والمقاتلين، لا المساعدات الإنسانية، وبدت عبارته لترميم الموقف، بأن «تركيا لا تنوي التدخل في أي مسائل داخلية لدول أخرى»، مضحكة في الوقت الذي أكدت فيه حتى الصحف الغربية أن تركيا تدرب جيش الثوار وفرنسا ترسل ضباط استخبارات للتدريب على حرب المدن.

ويبدو أن النظام السوري صمد، وتأخر سقوطه أكثر من المتوقع لدى المخططين له، فازدادت الحدة والتطرف، حتى إن تركيا ربما كانت تستعد اليوم لاجتياح سوريا، وخاصة بعد زيارات جو بايدن للمنطقة (وشملت العراق وتركيا)، وبالتالي سقطت كل صدقية أردوغان التي بناها لدى العرب، وتسرب الشك في أن مواقفه السابقة لم تكن إلا لكسب مواقف الجماهير العربية استعداداً للحظة الهجوم تلك، وهو ما يدفعنا إلى مراجعة مواقف أردوغان السابقة، فترى أنها كانت إعلامية في مجملها، لم يتلوه عنها شيء ثابت، وأنها لم تمنع الحكومة التركية في النهاية من استضافة الدرع الصاروخية للناتو، واستمرار العلاقة مع إسرائيل.

ومتلما تثير حماسة أردوغان البالغة الريبة، تفعل كذلك الحماسة غير المعتادة للغرب والدول العربية الأقرب لأميركا، والجامعة العربية أيضاً لدعم الثورة السورية. فالجامعة العربية، التي صارت فجأة في منتهى القوة والفاعلية، وهي المعروفة لدى الشارع العربي بسباتها الطويل في وجه إعتداءات إسرائيل، وضعت على سوريا شروطاً تسمح بتفسيرات «مفضضة تصل إلى حد التعجيز»، كما قال الوزير السوري وليد المعلم.

ورغم أن سوريا «نفذت ما هو مطلوب منها بموجب خطة العمل العربية» وفق وزير الخارجية اللبناني، عدنان منصور، إلا أن ذلك لم يعن شيئاً لجبهة المعارضة. وعندما حاولت الحكومة تقديم عفو عام لحل المشكلة، قالت وزارة الخارجية الأميركية إنها لا تنصح أحداً من المسلحين بتسليم نفسه إلى السلطات. الجامعة العربية و«اللاعبون» الآخرون، على ما يبدو، يسيرون وفق أسلوب دبلوماسي أميركي معروف، كما أشار إليه البروفيسور نواف تشومسكي مراراً، يتمثل في إدامة الأزمة بتقديم عروض لا يستطيع الطرف المقابل أن يقبلها، فإن حدث وقبلها، يرفع سقف



خلال تظاهرة مؤيدة للنظام السوري في دمشق الأسبوع الماضي (أ ف ب)

كانت تظاهرات ثورتي تونس ومصر عرساً عربياً لم يتردد أي مواطن في تأييده لحظة واحدة؛ فقد كانت صورتنا الثورتين متكاملتين ومنطقتين، وشعبيتهمما وسلميتهمما ومواقفهمما السياسية واضحة جلية، في تنافر مع وحشية النظام وعمالته، إضافة إلى الموقف الغربي والأميركي المحرج، الذي طمان الجماهير العربية إلى سلامة الثورتين. كذلك كانت ثورة البحرين، رغم تمكن النظام من إضفاء بعد طائفي عليها.

لكن الأمر كان أقل وضوحاً في اليمن وليبيا؛ فالأنظمة فيها مستهدفة من الغرب وإسرائيل. وكانت هناك تساؤلات عدة، وخصوصاً في الموضوع الليبي: فأي ثورة ترفع علم الملكية؟ وما هي قصة قادة الثوار وتاريخهم في «القاعدة»؟ وكيف تدعمهم أميركا لتحرير ليبيا، وتسعى إلى تحرير أفغانستان من إرهابهم؟ ومنذ متى يحمي الناتو ثورات الشعوب، دع عنك ثورات الشعوب العربية؟ هنا بدأ الشك في أن «الربيع العربي» مزيف، أو على الأقل بعضه. إلا أن وضوح موقف جماهير البلدين ضد حكومتهم لم يدع مجالاً للخيار لدى الشارع العربي، فأيد الثوار ودعم موقفهم، وإن كان بحماسة أقل.

ومن بين كل الثورات، كان الموقف من التظاهرات السورية دائماً الأكثر صعوبة. فمن ناحية أولى، ليست حكومة بشار الأسد ديموقراطية بالتأكيد. ومن ناحية ثانية، يعلم الشارع العربي أن تلك الحكومة هي الحكومة العربية الأخيرة الباقية على رفض المشروع الإسرائيلي

تم ترويج شائعة دعم العراق للحكومة السورية بالمال لمنعها من التفكير بمساعدتها

للمنطقة، وداعمة للمقاومة اللبنانية والفلسطينية بجرأة، ولا تخشى من علاقات علنية متطورة مع إيران.

واحتراماً لما عدّ خيار الشعب السوري، شارك الشعب العربي والصحافة اليسارية، نظراءهما من الشعوب الغربية وإعلامها تأييد الثورة واستنكار العنف تجاه المتظاهرين. لكن الشك بدأ يتسلل إلى النفوس شيئاً فشيئاً، مع تزايد حماسة الغرب للثورة السورية، واكتشاف مبالغت أشار إليها الصحافيون الأجانب بعد جولاتهم في سوريا.

ومقابل صغر حجم تظاهرات الثوار، استطاعت الحكومة السورية تجييش تظاهرات أكبر بكثير، تماماً كما حدث بعيد الانتخابات في إيران؛ صحيح أن الحكومات الدكتاتورية لا تعدم وسيلة لحشد التظاهرات، لكنها لا تفعل ذلك في الفترات الخطرة والاضطرابات، بل تلجأ إلى إلغاء التظاهرات حتى في مناسبات تؤيدها الحكومة خشية انقلاب الأمر عليها. إذاً، الحكومة تثق فعلاً بأن تلك الجموع تؤيدها بالفعل في هذا الموقف من «الثورة» على الأقل. وكتبت الصحافة اليسارية الغربية أن الثوار لم ينجحوا في كسب شعبيهم.

لم تعط الثورة السورية انطباعاً مشابهاً لثورتي تونس ومصر، بل كانت أكثر وحشية وتسلحاً بنحو واضح. ويجيب المتظاهرون بأن ذلك كان رداً على قسوة القوات السورية، لكن الصورة لم تعد بذلك الوضوح. وكشفت تقارير غربية عن تشويهات إعلامية واضحة، وفشل الثوار في إقناع الناس بأنفسهم في الإعلام، ولجؤتهم المستمر إلى الاستفزاز والقسوة، إلى درجة دعوة البعض منهم إلى قصف بلاده، وهو ما لم يكن وارداً في ثورتي مصر وتونس.

وحظي الثوار السوريون بمعاملة مميزة من أميركا، فترى السفير الأميركي في سوريا روبرت فور، وقد كان مستشاراً للسفير الأميركي في العراق جون نيجروبونتي، والأخير منهم بتكوين خلايا الإرهاب في أميركا اللاتينية في ثمانينيات ريفان، يلتقي المعارضين ويزور حماه. وهكذا تزايد الانطباع بوجود مؤامرة تختلط بالثورة، فلزمت الجماهير العربية الصمت والمراقبة.

من ناحية أخرى، أثار موقف أردوغان وحماسه المبالغ فيها الشكوك. فهو كرجل دولة، تعدى كل حدود صفته بدعوى الموقف الإنساني. وكان حاداً في موقفه وهو المعروف بلجؤته إلى



الزاهب «رسمت خطأ في الزمان»، هو، كما يقول في القصة وفي الواقع، «استسلم لإله الدولار» وذهب للتعليم في الكويت، حيث شهد الغزو العراقي من الداخل. وهو نشر روايته بعد ربح قصير من طرده من عمله في الإمارة بتهمة تحريض الأجيال الطالعة. الزوايا ممنوعة في الخليج قطعاً، ولم يسمع بها أغلب القراء العرب لأن الإعلام العربي طمسها، ولكنني على يقين من أنها ستدرّس في المستقبل لمن أراد فهم تاريخ العرب الحديث.

فن إخفاء التاريخ

أن تكون المسائل المصيرية في بلادنا خارج إطار النقاش الفكري ولا يسجلها الإعلام هو ليس بالأمر المستغرب، وهو ليس عرضياً ولا يحصل بالصدفة. إخفاء التاريخ هو من أبرز فنون الهيمنة، وإن تساءلنا عن سبب غياب تاريخنا الحقيقي عن التداول بداننا بالتعرف إلى القوة التي تكتب ماضيها اليوم، لا يعرف المواطن العربي شيئاً عن صناعة النفط في بلاده، وتترك قراراتها لاستنساب الحكومات والشركات العالمية - كأنها مسائل «تقنية» وليست سياسية. هذا بعدما كان عبد الله الطريقي ورفاقه يدعون، منذ الستينات، إلى زرع مسألة النفط في قلب الجدل السياسي العربي. في العراق اليوم، لا تكاد ترى أثراً للحصار - الجريمة الأكبر التي حلت بالعراق - فيذاكرة الجديدة التي تبنى للبلد. كأنما الحصار لم يحصل، أو أنه كان كارثة طبيعية، لا سياسة مقصودة وقف خلفها أناس أسترخصوا الدم العراقي إلى حدّ المذبحة. كتمان التاريخ ليس عرضياً، ونقوب الذاكرة لا تولد بالصدفة.

الحرب الأهلية العربية كُتبت كما اشتعلت، على عجل، وإن كانت عناصرها مستمرة ونراها حولنا في الواقع السياسي اليومي. اللغة العنصرية للحرب الأهلية تطل برأسها اليوم من جديد، خاصة في الإعلام السوري بعدما دخل البلد في مواجهة مع جامعة الدول العربية، وتلك الأخيرة صارت بوضوح إحدى أدوات الحرب الأهلية المذكورة. منظمة تشبه الأمم المتحدة إلى حدّ بعيد: تسيرها دول تمثل خمسة بالمئة من الشعب العربي، وتعرض نفسها وكبلاً للنظام العالمي في المنطقة، تفرض إرادته وتفرض العقوبات. هنالك وقاحة ستسجل للتاريخ في أن يطالب بعض العرب بحصار سوريا ونحن لما نتأثر بعد لضحايا العراق، إذ تهترز منطقتنا من جديد، سؤال قديم يطرح نفسه مجدداً: إلى متى تراهن حكومات النفط على أن التاريخ سيسمح لها بإخضاع الأغلبية، واعانة الاستعمار عليها، بل وقتلها، من غير أن ترتدّ عليها عواقب تلك الأفعال؟

* كاتب عربي